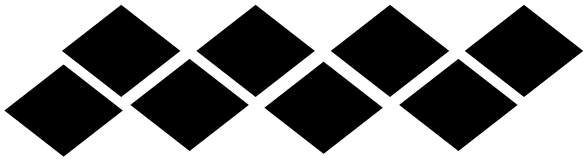

أساطير الفتح الأندلسي

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الباحث

محمود امبارك الشاذلي

مقدمة :

قلما يتفق باحثان حول مفهوم محدد للأسطورة، كمفهوم معرفي من جهة ؛ وعلاقة هذا المصطلح بمصطلحات أخرى، تتناص معه، في مفهومها من جهة أخرى، لذلك فإن تبايناً شديدًا فرض نفسه في تحديدها كمصطلح ؛ وفي تحديد مكانتها وأهدافها...

فمن الباحثين من يرى أن الأسطورة خرافة [١] ؛ ومنهم من يرها حقيقية، ومنهم من لا يفرق بينها وبين التاريخ، أو بينها وبين الخرافة، ومنهم من يرها محض أكاذيب ومنهم من يرى أن لها امتداداً في حقل الواقع ؛ وأخر يرى أن الشخصية التاريخية التي كان لها دورها الإنساني في صنع التاريخ والدفاع عنه، تصبح مع الصيرورة التاريخية رؤية أسطورية ؛ وحالة جمالية تفوق حد التخيل.

إن هذا الاختلاف في تحديد مكانة الأسطورة وأهميتها، أدى إلى إخضاعها إلى مناهج فكرية عديدة ، تعاملت معها وفسرتها، بهدف تحديد معناها، ومنطقها، وطبيعتها...

Rarely do two scholars agree on a specific concept of myth, as a cognitive concept; on the one hand, the relation of the term to other terms, in its conception, on the other hand, is very different in its definition as a term;

It is among the scholars who see that the myth is a myth; some of them see it as real, and some of them do not distinguish between it and history or between them and superstition. Some of them see it as mere lies. Some see it as an extension in the field of reality; Have a human role in the making and defense of history, become with the historical process a mythical vision; and aesthetic state beyond the limits of imagination.

This difference in determining the status and importance of the myth, led to subjecting them to many intellectual approaches, dealt with and interpreted, in order to determine their meaning, logic, and nature ...

توطئة :

الأسطورة في اللغة :

الأساطير هي الأحاديث التي لا نظام لها؛ واحدها أسطار وإسطار بالكسر، وسطور بالضم، يقال سطر فلان يسطر، إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل، أي أنه يؤلف ما لا أصل له [٢].

والمعاجم العربية في اللغة لا تعطي المدلولات الحقيقية لكلمة الأسطورة فالأساطير في هذه المعاجم هي الأحاديث التي لا نظام لها؛[٣] وعليه فإن المفهوم اللغوي لا يختلف عن المفهوم الديني بل يبدو أن المعنى اللغوي استند في معطياته إلى المفهوم الديني إذ أجمع على أن الأساطير هي أكاذيب وأباطيل [٤].

وقد وردت الأسطورة في سبع مواضع من كتاب الله العزيز بصيغة الجمع مضافة إلى كلمة الأولين على لسان الكافرين؛ والمنافقين؛ والمنكرين لكتاب الله ، وهذا يدل على مفهوم مهم للأسطورة، بوصفها أكاذيب وأباطيل، لذلك استعمل القرآن الكريم لفظة الأساطير فيما لا أصل له من الأحاديث، إذ وردت في قوله تعالى: ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)) [الأنفال : ٣١] ، وفي قوله تعالى: ((وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)) [الفرقان : ٥]

أما الأسطورة في الاصطلاح:

لما كانت الأسطورة حاوية للعناصر الثقافية شديدة التعقيد كان من الصعب علينا إيجاد تعريف متفق عليه يكون في متناول المتخصصين والمهتمين والدارسين على سواء؛ أضف إلى ذلك نسبة التشابه بين مصطلح الأسطورة ومصطلحات أخرى ، كان لزاما التوقف مطولًا مع هذا المصطلح بغية توضيحه وتحديده بدقة قدر الإمكان.

فالأسطورة هي: «حكاية مقدسة مؤيدة بسلطان ذاتي؛ وذات مضمون عميق يشف عن معانٍ ذات صلة بالوجود والكون وحياة الإنسان». وتعني القدسية هنا تلك الصفة التي يتم إسباغها على الخطاب الديني فقط الذي لا يقبل التصويب؛ بل ذلك الإجلال والتعظيم الذي تستثيره الأسطورة بسبب وضعها المتميز بحق؛ ويُقصد بالسلطان الذاتي الأساس الأخير سطوة الأسطورة وسلطتها على عقول وقلوب الناس بدلالة محتواها؛ وتكون جملة مفاهيم الأسطورة أنها حاوية تتضمن رواية أو حدثًا أو علاقة حكمية وخلقية.

فهي حكاية غريبة خارقة، ظهرت في العصور الموغلة في القدم، تتناقلها الذاكرة البشرية عبر الأجيال، وفيها تظهر آلهة الوثنيين وقوى الطبيعة بمظهر شري.

ويمكن عرض تعريف آخر قد يكون أكثر دقة وتحديد لوظيفتها .

فراس السواح [٥]: الأسطورة وهي ظاهرة من أهم ظواهر الثقافة الإنسانية لها أجناس أدبية مشابهة لها من حيث الشكل مثل الخرافة والحكاية البطولية ؛ حتى نميز النص الأسطورة من غيرها فقد وضع بعض الباحثين أسسا في بناء الأسطورة من حيث محتواها قبل تقديم تعريف لها.

أولًا: من حيث الشكل: الأسطورة هي قصة، وتحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وما إليه؛ وغالبا ما تجري صياغتها في قالب شعري ساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية، ويزودها بسلطان على العواطف والقلوب.

ثانيًا: يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتناقله عبر الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة للجماعة؛ كما هو الشأن بالنسبة للأساطير السومرية التي حافظت على صيغتها الأصلية قرابة الألفي سنة؛ من الألف الثالث قبل الميلاد إلى الألف الأول قبل الميلاد؛ إلا أن هذه الخاصية لا تعني الجمود أو التحجر لأن الفكر الأسطوري يجدد أساطيره دائما، إما بالتخلي عن الأساطير التي فقدت طاقتها الإيحائية أو تعديلها.

الأسطورة الأندلسية :

إن معظم الشعوب التي كانت لها حضارات مميزة ، نسجت العديد من الأساطير والحكايات التي تمجد أبطالها وأمراءها وملوكها ومؤسسي دياناتها أو مُدنها أو إمبراطورياتها؛ وأضفت هذه الشعوب علي ميلاد هؤلاء الأبطال ونسجت حولهم خيالات[٦].

ومن المعروف أن فتح العرب للأندلس في سنة ٩٢هـ (٧١١م)؛ كان من الأحداث التاريخية الكبرى التي كان لها أعمق التأثير في تاريخ عالم العصور الوسطى بشطريه : الإسلامي والمسيحي ؛ إذ ترتب علي هذا الفتح أن أصبحت شبه جزيرة أيبريا أول قطعة من أرض القارة الأوربية يتحول إلي جزء من عالم الإسلام والعروبة . وقد ألهب هذا الفتح الكبير بما تضمنه من أحداث وبطولات أخيلة الناس في الشرق والغرب علي حد سواء .

فحملت أرض الأندلس من الفتح الإسلامي ، لتلد مجموعات وحلقات متعاقبة من الأساطير والأحاديث شائعة في أوساط المسلمين الفاتحين؛ ومنهم امتدت إلي بلاد الشرق

العربي وأصبحت جزءًا من التراث الشعبي العربي ، كما أنها امتدت إلي أوساط المسيحيين من أهل البلاد المفتوحة ، فأصبحت أيضا جزءًا من تراثهم الأدبي ، وظل الأدب الإسباني يستوحي منه الكثير من الآثار الشعبية والقصصية والمسرحية حتى عصرنا هذا [٧].

- البيت ذو الأقفال أنموذجًا:

من الأساطير التي كتب لها ذيوع عظيم ، والتي كانت من إرهاصات الفتح الأندلسي المبشرة بتمامه علي نحو كأنه قدر محتوم لا قبل لبشر بصده أو إيقافه؛ تلك القصة التي تذكر أنه كان في دار الملك بطليطلة بيت عليه أقفال؛ فلم يكن أحد من ملوك القوط إلا وضع علي هذا البيت قفل عند تنصيبه ، ولم يفتح هذا البيت منذ أنشأ .

وعلي الرغم من شهرة هذه الأسطورة ، بيد أن نشأت هذا البيت وأسباب وضعه لم ترد بنصها إلا في كتاب ((نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)) نقلا عن ابن خلكان في الأعيان .

نشأة أسطورة ((البيت ذو الأقفال)) :

بدأ مولد الأسطورة بجزيرة " قادس " بنواحي غرب الأندلس ، وكانت تحت حكم ملك يوناني ، وكانت له ابنة في غاية الجمال ، ولما كانت الأندلس كثيرة الملوك أنذاك ؛ كثرت خطبتها ، وخشي أبوها سخط الملوك ؛ لأنه كان لكل بلد أو بلدتين ملك قال[٨] : " يا بنية، إني أصبحت علي حيرة في أمرك ممن يخطبك من الملوك ، وما أرضيت واحدًا إلا أسخطت الباقين .

فقالت له : اجعل الأمر لي تخلص .

فقال : وما تقترحين ؟

قالت : أن يكون ملكًا حكيمًا .

وكما قيل أن الحكمة نزلت علي أدمغة اليونان ، وأيدي أهل الصين ، وألسنة العرب .

إلا أن الأمر لم يخلص بعد ، حيث سكت الملوك ، إلا اثنين ، فما كان من الابنة إلا أن زادت الأمر تعقيدًا .

" ... فقالت : سأقترح علي كل واحد منهما أمرًا يأتي به ، فأيهما سبق إلي الفراغ مما التمست كنت زوجته .

قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟

قالت : إنا ساكنون بهذه الجزيرة ، ومحتاجون إلي أرحى تدور بها ، وإني مقترحة علي إحداهما إدارتها بالماء العذب الجاري إليها من ذلك البِر ، ومقترحة علي الآخر أن يتخذ لي طلسما نحصن به جزيرة الأندلس من البربر ... " [٩] .

فقد اختصت بيئية الأسطورة أرض الأندلس بأكملها ، بناءً علي نص الأسطورة السابق ، وقد كانت أسباب الأسطورة الخروج من مزق الخطبة ، والذي تحول إلي منقذ للأندلس بأكملها من الغزو ، وكذلك من الجدب والعطش .

وتنتهي القصة بإنهاء كل من الملكين ما كلف به إلا أن صاحب الرحي كان أسبق في إنهاء عمله من صاحب الطلسم؛ وأن صاحب الطلسم لما وصل إليه خبر الماء يجري في الجزيرة وكان في أعلي القبة يصقل وجهه ، وكان الطلسم مُذهبا ، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلي من البناء ميتًا.

تنتهي قصة الطلسم بموت صاحبه ، وبطولة صاحب الرحى ، ليفوز بالأميرة ، ويتفقوا علي أن يودع هذا الطلسم تابوتًا من الرخام ، وتركوه في بيت بطليطلة ، ووضع علي الباب قفلا تأكيدًا علي حفظ ذلك .

وهذه هي مراحل الحمل التي مرت بها أسطورة البيت ذو الأقفال بعد أن اكتمل نموها ونضجت في رحم أرض الأندلس .

البيت ذو الأقفال بطليطلة :

من الحكايات الشعبية التي قدر لها ذيوع عظيم، والتي كانت من إرهاصات فتح الأندلس المبشرة بتمامه علي نحو كأنه قدر محتوم لا قبل لبشر بصده أو إيقافه ؛ تلك القصة التي تذكر أنه كان في دار ملك لذريق آخر ملوك القوط بيت عليه أقفال ، فكل من يلي منهم المُلك يزيد قفلًا علي ذلك البيت؛ ولم يفتحه ملك قط منهم ، ولا علم ما فيه حتى انتهت الأقفال إلي عشرين قفلًا .

وقد ذكر المقري ست وعشرون قفلًا علي هذا الباب؛ وأن لزريق السابع والعشرون ، ولعل الهدف من ذكر عدد الأقفال الدلالة علي قدم هذه الغرفة ، وعدم معرفة أسبابها ، والدلالة علي حمايتها طيلة هذه الفترات من الزمن دون الخوض في حروب ؛ أو أن يُغِير البربر علي الأندلس .

وقد تعددت أسباب فتح لذريق للبيت ذي الأقفال ، وكذلك اختلاف وصف البيت .

وعلي الرغم من تعدد هذه الروايات إلا أنها تكاد تكون متفقة علي جوهر الأسطورة وهو فتح البيت سواء كان بسبب الطيش كما ذكر المقري ؛ أو بسبب الحاجة للفضول والشك بأن داخله كنز لا يقدر بمال . فأعظم ذلك أكابرهم وتضرعوا إليه في الكف ، فأبى وظن أنه بيت مال ، ففض الأقفال عنه ودخله ، فأصابه فارغًا لا شيء فيه إلا تابوتًا عليه قفل ؛ فأمر بفتحه فألفاه أيضا فارغًا ليس فيه إلا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب علي خيولهم وعليهم العمائم؛ متقلدي السيوف ، متنكبي القسي رافعي الرايات علي الرماح ، وفي أعلاها كتابة بالعجمية ، فقرئت فإذا هي : " إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور؛ فإن الأمة المصورة فيه تغلب علي الأندلس وتملكها . فبهت لذريق وعظم غمه وغم العجم ، وأمر برد الأقفال وإقرار الحراس علي حالهم .

مصادر الأسطورة :

لا يكاد يخلو مصدر أندلسي أو مشرقي من إيراد هذه القصة مع اختلاف طفيف في تفاصيلها؛ إذ نجدها لأول مرة في كتاب ابن حبيب الأندلس ؛ وفي فتوح مصر لابن عبد الحكم المصري ، وفي الإمامة والسياسة الذي رجح د / محمود علي مكى أنه أحد أحفاد موسي بن نصير . وكذلك نجدها في كتاب ابن الوقطية ، وابن الكردبوس ، وابن الشباط ، وابن عذارى ، وابن عذاري ، وابن خلكان والمقري . (١٠)

وتنتمي هذه القصة إلي ذلك التراث الأسطوري الشرقي والمصري بصفة خاصة؛ الذي أثرى رواية فتح الأندلس بعدد كبير من القصص ذات الطابع الغيبي .

ويدلنا علي ذلك أن أول رواية لهذه القصة ترد في كتاب ابن حبيب رواية عن الفقيه عبد الله بن وهب (ت ١٩٧/٨١٢)، تلميذ الإمام مالك بن أنس ، وهو يروي بدوره عن الإمام الفقيه الليث بن سعد (ت ١٧٥/٧٩١) ، هما عالمان مصريان كانا من أئمة الفقه؛ ولكنهما شغفا بالروايات التاريخية التي هي أقرب إلي الأساطير والأحاديث الشعبية منها إلي التاريخ .

ويتردد أسماهما بكثرة في الأخبار المتعلقة بتاريخ مصر القديم وفتح العرب لها ؛ وذكر ما فيها من عجائب ، أما الرواية الأخرى لقصة البيت ذي الأقفال – وهي التي تلي سابقتها في القدم وتتفق معها اتفاقا يكاد يكون حرفيا – فهي الواردة في كتاب " فتوح مصر " لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧/٨٧٠)؛ وهو يرفعها إلي أبيه عبد الله بن عبد الحكم (ت

٨٣٩/٢١٤) وإلي راوية أخر يدعى هشام بن اسحاق لم نتمكن من تجلية شخصيته وإن كان من الواضح أن كليهما من ممثلي الروايات المصرية لتاريخ الأندلس .

وقد كان العالم الفرنسي رينيه باسيه Rene Baset من أول من درسوا هذه القصة؛ فعد الأقفال التي جعلت علي هذا البيت وصور العرب التي وجدت فيه من قبيل الطلسمات التي شاع الحديث بين الشعوب القديمة عن أثرها السحري في حماية المدن؛ أو الآثار القديمة والتحف الثمينة؛ فإذا امتدت إليها الأيدي بالسرقة أو الإفساد أو الانتهاك بطُل مفعولها السحري(١١)، وحاول الباحث الأسباني أدواردو سافيدرا Eduardo Saavedra أن يفسر القصة تفسيرًا تاريخيًا ، فقال إن لذريق كان في حاجة ماسة إلي المال من أجل إخماد الثورات التي نسجت ضده ، فحاول أن ينتهب الحلي والكنوز التي كانت مودعة في كنيسة " سان بدرو وسان باولو " المجاورة للقصر الملكي في طليطلة؛ ولكن أمله خاب إذ لم يجد فيها ما يسد حاجته ، ومن هنا ولدت قصة البيت ذي الأقفال .

غير أن هذا التفسير الذي يحاول تلمس مصدر محلي لهذه الأسطورة ؛ أي بين أوساط الشعب المغلوب بعيد عن الاقناع .

وربما سبب الاعتقاد بوجود هذا المصدر المحلي الإسباني، هو أن المؤرخ المغربي ابن عذاري المراكشي (الذي كتب في أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)؛ حينما ساق قصة البيت ذي الأقفال قدم لها بقوله: "وعن كتب العجم ... إلخ"(١٢)، بيد أن المدونات المسيحية التي أوردت القصة متأخرة كثيرًا عن المصادر العربية؛ وتبدو نقلًا مباشرًا عن هذه المصادر .

ويرى البحث أن تعليل الأسطورة وقصة وضع الطلسم والرحى ، هي خير دليل علي أن الأصل في أسطورة البيت ذي الأقفال العرب؛ وذلك لعدم ورودها قبل المقري في نفح الطيب والذي نسبها إلي ابن خلكان (١٣).

التحليل الفني للأسطورة :

اكتملت العناصر الفنية للقصة داخل أسطورة البيت ذي الأقفال ، وإن كان تعليل صنع الطلسم ووضعه في البيت ذي الأقفال أكثر دقة من الأسطورة ، حيث اشتمل علي عناصر القصصية متكاملة .

أولا : الحبكة .

وهي فن ترتيب الحوادث وسردها وتطويرها وقد اعتمدت الأسطورة علي الحبكة المحكمة؛ حيث أن حوادثها مترابطة متلاحمة تتشابك حتى تبلغ الذروة ؛ ثم تنحدر نحو الحل.

مراحل الحبكة (البناء)[١٤]:

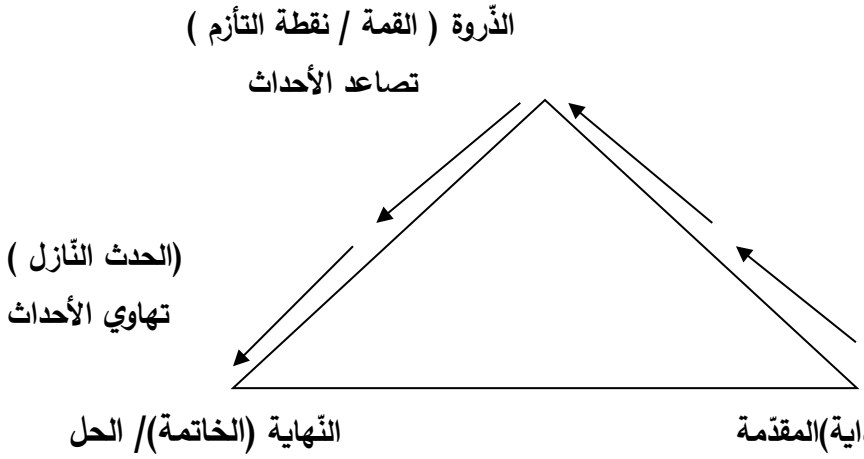

فكانت بداية الحبكة عند بلوغ ابنة الملك سن الزواج؛ وكيف أن جمالها كان فتانا مما جعل الأحداث تتصاعد بطلب الملوك الزواج منها .

وكانت الذروة للحبكة بكثرة الملوك ، وبدأت الأحداث بالنزول ؛عندما وُكِل الأمر إليها واشترطت أن يكون ملكًا حكيمًا .

وفي النهاية كان الحل الذي نتج عنه زواج ابنة الملك ، وولادة أسطورة البيت ذي الأقفال؛ فيكون الحل بداية الحبكة الخاصة بالبيت ذي الأقفال ؛ حيث تتصاعد العقدة في الأسطورة وتصل إلي ذروتها عندما يُصرّ الملك لزريق علي فتح هذا البيت وفتح التابوت ، وينتظر تحقيق ما بداخل التابوت .

بيد أن الفجوة الوحيدة المجهولة ولا يوجد لها تعليل داخل النص الأسطوري هما أمرين :

الأول : أسباب وضع الطلسم داخل بيت طليطلة ؛ حيث أن الملك وابنته لم يسكنوا طليطلة وكذلك صاحب الرحي . ولم يرد نص يوضح سبب ذلك .

والثاني : عند ذكر أسباب فتح البيت ذي الأقفال ، إن كثرت الروايات في سبب فتح البيت ذي الأقفال؛ جعلت الحبكة غير مكتملة.

يري البحث أن أسباب هذه الفجوة في نص الحبكة المحكمة؛ يرجع إلي تأخر التدوين من جانب ، وعدم التدقيق في الرواية من جانب أخر، كما أن المدونين لم يسجلوا النصوص كما هي وإنما كان كل واحد منهم ينسج النص بلغته هو لا بما روي له.

ثانيا : الحوار .

لقد دارت عدة حوارات في قصة صُنع الطلسم، ويمكن تقسيمها إلي حوار مباشر، وحوار غير مباشر .

وقد تمثل الحوار المباشر فيما دار بين الملك وابنته نذكر منه :

قال[١٥]: "يا بنية ، إني أصبحت علي حيرة في أمرك ممن يخطبك من الملوك ، وما أرضيت واحدًا إلا أسخطت الباقين .

فقالت له : اجعل الأمر لي تخلص .

فقال : وما تقترحين ؟

قالت : أن يكون ملكًا حكيمًا .

كما تمثل الحوار الغير مباشر علي طريقتين

الأولي التي كانت بين الملك وخُطاب ابنته ، وكان اعتماده علي الخطابات المرسلة بينهم.

والثانية ما كان بين صاحب الرحى ، وصاحب الطلسم ، حيث يتتبع كل منهم أحوال الأخر دون علمه عن طريق ما يدور بين الناس .

ثالثا : الشخصيات .

اعتمدت القصة علي شخصيات رئيسة ، وشخصيات ثانوية .

وتمثلت الشخصيات الرئيسة في : الملك ، ابنته ، الملكان الحكيمان .

ترك القاص استنتاج الشخصية الرئيسة لأسطورة ، وهي ابنة الملك إلي القارئ ؛ وذلك لبيان مدى ذكائها ، عندما استطاعت أن تتزوج من أحد الملوك دون أن تغضب أحداً منهم .

والشخصيات الغير رئيسة تمثلت في : الملوك الذين سكتوا عن الرد لعدم توافر شرط الحكمة فيهم ، للزواج من ابنة الملك .

رابعا : الزمن .

وإن كانت القصة لم تحدد الزمن مباشرة إلا أنها حددته بشكل أخر، حيث قصرت الحقبة الزمنية علي الفترة التي حكم فيها اليونان مدينة " قادس " ثم حددت مرة أخرى من خلال فك الطلسم حيث يبين نص الطلسم أن الملك لذريق أتى بعد ٢٦ قفلاً وضعوا علي الباب قبل أن يقوم بفتحه .

بيد أن هذا التحديد غير دقيق ، كما أورد د / محمود علي مكي أنه كان بعد ٢٠ قفلًا .

خامسا : المكان .

لقد اختص الطلسم وكذلك الرحى بأرض الأندلس فقط ؛ محصورة في حمايتها ، من البربر والعرب ، وكذلك من أن يصيبها جدب أو عطش .

- ابنت يليان وخطيئة لذريق أخر ملوك القوط

نشأة الأسطورة :

من القصص التي أجمع عليها المؤرخون في فتح الأندلس ؛ أن يليان حاكم سبته هو الذي دعا موسي بن نصير لفتح الأندلس ؛ وهو الذي كشف له عوراتها ، وتجعل لذلك سببا تودعه قصة مثيرة هي أن يليان – كعادة نبلاء القوط وملوكها – بعث بابنته إلي قصر لذريق في طليطلة لتتأدب فيه أسوة بغيرها من بنات النبلاء وأبنائهم . ووقع نظر لذريق علي الفتاة وكانت رائعة الجمال ، فعشقها وتمكن من النيل منها ، فكتبت إلي أبيها مخبره استكراهها إياه ، علي ما فعل بها ، فكتم يليان معرفته بالأمر وتحجج بمرض والدتها ، وصمم علي الانتقام من لذريق ، وهكذا اتصل بطارق بن زياد ليكون المدبر للحملة الأولى التي كانت بقيادة طريف ، ومن بعدها الفتح علي يد طارق انتقامًا من لذريق الذي دنس شرفه [١٦] .

بيد أن النص القصصي للأسطورة يكاد يكون غير معروف ، وإن كانت تفاصيلها تختلف فيما بينها من إيجاز وإطناب .

ويبقي النص ثابت علي أن ليليان ابنه تم الاعتداء عليها من قبل ملك الأندلس ، وكان الانتقام ، مساعدة المسلمون في الدخول إلي الأندلس .

مصادر الأسطورة :

لم يتخلى مصدر من المصادر العربية عن ذكر قصة ابنة يليان ، بداية من كتاب التاريخ لعبد الملك بن حبيب والإمامة والسياسة لابن القوطية ، حتى فجر الإسلام لحسين مؤنس ، وأنها السبب في دخول المسلمين الأندلس .

كما تتفق المصادر علي أن الذي اعتدي علي ابنة يليان هو لذريق ، وخالفهم ابن خلدون ذكر أن الذي اعتدى علي ابنة يليان هو غيطشة الملك السابق للذريق ؛ ويؤيده في ذلك المؤرخ الإسباني سان بدروبسكو ؛ معللا أن غيطشة كان صديق يليان ، ومن غير المعقول أن يرسل ابنته إلي ملك بينه وبينه عداوة ؛ وكما أن الثابت في التاريخ أن لذريق اغتصب الملك من غيطشة فكيف يرسل ابنته إلا مغتص الملك [١٧].

ويري البحث أن ما ذهب إليه الدكتور حسين مؤنس في فجر الأندلس بقوله : " ولسنا نحتاج إليها لكي نعلل دخول العرب إلي الأندلس تعليلًا معقولًا " [١٨] ، ولا يمكن أن تكون هذه القصة هي السبب الحقيقي وراء دخول العرب إلي الأندلس؛ مع أن القصة فيها عناصر مثيرة مشوقة ، لاسيما وهي تتعلق بالشرف والانتقام له ، قد قُدر لها الشيوع والانتشار في أوساط المسلمين والمسيحين علي السواء.

أما المصادر الأجنبية ، فلا يكان لهذه القصة أن يكون لها ذكر قبل عام ١١١٠ ، إذ أورد ذكرها لأول مرة في مرجع إسباني لاتيني هو " تاريخ راهب سيلوس " ذكرها مجملة علي صورة قريبة مما تذكره الروايات العربية .

ويري الباحث الألماني كرابه Krappe أن أصل هذه القصة إنما هو مأخوذ من التراث الجرماني الذي ورثه القوط عن أجدادهم الجرمان [١٩] .

وناقش منندث بيدال مسألة الأصل العربي الشرقي المحتمل لهذه القصة فأنكر ذلك؛ وقال إنه ليس من مصلحة المسلمين الغالبين أن يهونوا من قدر انتصارهم ؛ حينما يجعلونه بفضل خيانة يليان الذي أعانهم ويسر لهم سبل الدخول إلي الأندلس؛ لكي يتم انتقامه من جريمة لذريق ، ولا من مصلحتهم أن يصور نصر طارق بن زياد علي أنه كان بفضل

انخذال ابني غيطشة بميمنة جيش لذريق وميسرته بسبب كراهيتهما لمغتصب الملك عن أبيهما ؛ ولهذا فقد استبعد بيدال أن تكون القصة ولدت في محيط عربي إسلامي ، وإنما الأشبة بالحقيقة عنده هو أن تكون نابعة من أوساط المسيحين ؛ الذين كانوا يعيشون في ظل الدولة الإسلامية الأندلسية ، إذ أنهم بذلك ينسبون هزيمتهم أمام الجيش العربي الفاتح لا إلي ضعفهم أو جبنهم؛ وإنما لخيانة وقعت في صفوفهم .

ويري الدكتور محمود علي مكي أن أصل هذه القصة عربية إسلامية ، إذ أن الاهتمام بالشرف والغيرة عليه بحيث يمكن أن يؤدي إلي حروب ، ويحقق هذا المنعطف التاريخي الخطير ، لا يتصور فهمه إلا في مجتمع عربي إسلامي [٢٠].

ويري البحث أن خلو الروايات العربية من اسم ابنة يليان، وذكرها في المصادر الإسبانية يدعم الرأي بنسبتها إلي الإسبان؛ وإن كان ورود الاسم متأخر حتى عام ١٣٠٠.

بيد أن قصاص الإسبان وواضعوا الأغاني الشعبية سموا هذه الفتاه (فلورندة Florinda) ولزمتها هذه التسمية في الكتب جميعا [٢١] .

التحليل الفني للأسطورة :

وإن كان النص الأسطوري غير موحد داخل المصادر ، ويختلف من كتاب إلي أخر ، إلا أن عناصرها الفنية تكاد تكون موحدة .

أولا : الحبكة

اعتمدت الأسطورة علي الحبكة المحكمة ، التي تتوالي أحداثها كسبب لما قبلها ، فكانت:-

البداية : ذهاب أبناء الملوك والنبلاء للتأدب في قصر الملك بطليطلة .

تصاعد الأحداث : عند رؤية الملك لابنة يليان وافتتانه بجمالها .

العقدة : اغتصاب ابنة يليان .

تنازل الحدث : علم أبيها بما حدث ، وتدبيره للانتقام .

النهاية : دخول العرب الأندلس واستلائهم عليها .

الحوار :

علي الرغم من كثرة أحداثها إلا أن الحوار داخل الأسطورة كان قصيرا جدا .

حوار غير مباشر : والذي تم بين ابنة يليان وأبيها بإرسالها رسول إلي أبيها تعلمه بما حدث .

حوار مباشر : وهو ما تم بين يليان ولذريق عندما أخذ ابنته ، وأخبره يقوله " أيه الملك ، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك قط " [٢٢] ، تعريضا لما أدمره من دخول العرب الأندلس .

وكذلك الحوار بين يليان وطارق بن زيد أو موسي بن نصير ؛علي اختلاف الروايات

الشخصيات :

علي الرغم من كون ابنة يليان هي الشخصية الرئيسة التي قام عليها النص الأسطوري إلا أن اسمها داخل المصادر ظل مقتصر علي كلمة ابنة يليان .

أما يليان ، ولذريق وطارق أو موسي كان لهم الصدارة في ذكر أسمائهم .

الزمان : اقتصرت الأسطورة علي زمن قبيل فتح الأندلس .

المكان : تعددت الأماكن داخل الأسطورة بين قصر لذريق بطليطلة ، وبين سبته التي يقيم فيها يليان ، وبين دخول العرب أرض الأندلس ، عن طريق مديق جبل طارق .وذلك نظرًا لاختلاف الروايات في تقابل طارق بيليان

ويري البحث علي الرغم من عدم توحد النص الأسطوري؛ إلا أنها تكاد تكون الأسطورة الوحيدة التي اتفق علي عناصرها المؤرخون مع كثرتها في الكتب .

خاتمة :

من خلال ما سبق من دراسة للقصة العربية في الأندلس ، ومتابعة الدراسة لها ، وتحليل القصص محل الدراسة ، تبين للبحث هذه النتائج والتي أهمها .

وجود العصبية الإقليمية في القديم ، والتي تضاهيها الإقليمية العلمية في الحديث، وأن من أهم أضرارها ،التعسف المنهجي الذي أدى إلي تقسيم الأدب العربي إلي مشرقي ، وأندلسي.

وأن النهج القويم لدراسة قضايا الأدب العربي في مشرق الأرض ومغربها ، أن توضع في سياقها التاريخي الفني العام من الأدب العربي كله.

أن الأدب العربي في الأندلس هو امتداد عضوي للأدب العربي في المشرق وليس مقابلا له .

فإن هذه الأساطير، تنتمي إلي فن الأقصوصة ، وذلك لقصرها المتناهي .

وأن القصة الأولي بيت الحكمة ، خرافة مثلت أسباب عدم تعرض العرب ، والبربر للأندلس طول السنوات السابقة للفتح ، حيث أنها كانت محصنة بطلسم لا يمكن كسره .

كذلك الغرفة ذات الأقفال ، في تسلسل طبيعي لسابقتها ، فقد كان كسر الطلسم يعني دخول العرب إلي الأندلس .

وأخيرا فإن هذه القصص والأساطير ، هي من روائع النثر الفني في الأدب العربي ، حيث مثلت جوانب من حياتهم في بلاد الأندلس ، وأنها جديرة بالدراسة التحليل .

المراجـع:

١- الخرافة: اعتقاد خاطئ يتداوله الناس فيما بينهم تضيرا لظاهر أو مشكلة لا ستطيعون لها حلا.
٢- مغامر العقل الاولى، فراس السواح، دار الوعد، بيروت، ص ٢.
٣- جميع المعاجم العربية اتفقت على هذا المعنى للأسطورة، لسان العرب، المعجم الوسيط.
٤- الطبري وابن كثير والقرطبي كذلك جمعيهم اتفقوا على هذا الري.
٥ - مغامر العقل الاولى، ص ١٢ وما بعدها .
٦- " تجليات البطولة في الأدب الشعبي " ، أ / هشام بنشاوي ، مجلة الثقافة الشعبية العدد ٣٦ .
٧- الأساطير والحكايات الشعبية المتعلقة بفتح الأندلس ص ٢٨ .
٨- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج١ / ٢٤٥ .
٩ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج١ / ٢٤٥ .
١٠- ينظر : تاريخ افتتاح الاندلس لابن حبيب ص٢٢٥ ، وفتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٧٨ ، والإمامة والسياسة ص ١٢٥ ، ١٢٨ – ١٢٩ ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٧ ، والبيان المغرب لابن عذاري ٣/٢ ، ونفح الطيب للمقري ٢٤٢/١ ، ٢٤٤- ٢٣٨ ، ٢٥١ ، والروض المعطار ص ٦ – ٧ ، وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ٤٢- ٤٣ ، وصلة السمط لابن الشباط ص ١٣١ – ١٢٢ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان .
١١- الأساطير والحكايات الشعبية د / محمود علي مكي . ص ٣٢ .
١٢- الأساطير والحكايات الشعبية د / محمود علي مكي ، ص ٣٣ : نقلا عن البيان المغرب ٢ / ٣ .

١٣- لم يتمكن الباحث من العثور علي التعليل للأسطورة في المصدر الذي ذكرا المقري عند ذكر قصة الطلسم وهو : تاريخ ابن خلكان ٤ / ٤٠٦ . . ينظر نفح الطيب ١ / ٢٤٥ : ٢٤٨ .

١٤- الإجابة النموذجية لمادة : قصص وحكايات الطفل – الفرقة : الثالثة " رياض أطفال" الفصل الدراسي الأول – العام الجامعي : ٢٠١٠-٢٠١١م . جامعة بنها – كلية التربية النوعية – قسم رياض الأطفال

١٥- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج١ / ٢٤٥ .

١٦- ينظر : في هذه القصة في فتوح مصر لابن حكيم ص ٢٧٧ ، الإمامة والسياسة لابن القوطية ص ٨ ؛ أخبار مجموعة ص ٥-٦ ؛ الاكتفاء لابن الكردبوس ص ٤٣-٤٤ ؛ البيان المغرب لابن عذاري ٧/٢ ؛ نفح الطيب للمقري ٢٣١/١ ؛ الروض المعطار للحميري ص ٧-٨ ، وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ٥٩ – ٦٥ ، أساطير الفتح الإسلامي في الأندلس لعمر راجح شلبي ٦٥ .

١٧- الأساطير والحكايات الشعبية ٣٥ .

١٨- فجر الأندلس ٦١ .

١٩ – الأساطير والحكايات الشعبية ٣٦ .

٢٠- الأساطير والحكايات الشعبية ٣٨ .

٢١- هامش فجر الإسلام ٦٠ -٦١ ، ذكر د / عمر راجح شلبي في مجلة جامعة الخليل بحث " أساطير الفتح الإسلامي في الأندلس " اسم فلورندا منسوب إلي نفح الطيب ، لم يرد ذكر اسم لها في نفح الطيب ٢٢٢/١ .

٢٢- نفح الطيب ١ / ٢٥٠ ؛ طليطلة وأساطير فتح أندلس بين الحقيقة والفلكلور ٣٠